إنّ الحمد لله نحمده و نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ [1]

﴿ يا أيها النّاس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نّفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساء لون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾ [2]

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سد يدا يصلح لكم أعمالكم ويغفرلكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ [3]

أمّا بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله عزّ وجلّ،وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آ له وسلم، وشر الأمور محدثاتها،وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلا لة،و كل ضلالة في النار.

وبعد: إن الناظر إلى دور العلماء في تقديم المنهج الحق وتقدير واقع الأمة وإقامة بنائه الفكري والاجتماعي يجد أن البون شاسع بين ما نحن فيه وما يجب أن نكون عليه، ذلك لأن المنهج العلمي الذي استنبطه علماؤنا من الوحي السماوي تم على أساسه تقسيم قضاياه إلى قسمين الأول : خاص بمسائل العلم الجلية المعلومة من الدين بالضرورة فمن لم يقبلها بعد البلوغ وصف بأنه رافض للحق، والثاني : خاص بالمسائل الدقيقة التي قد يعذر المكلف بجهله ، وهذا المنهج الذي تعاملتْ به طبقات الأمة كان رحمة وهدى وخيرا للبشرية، حيث لم يحكموا على المخطئين بحكم واحد، ولم يزجوا بهم في هوة الضلال، بل حكموا على كل بما يستحق، فمن وقع في الخطإ لجهله وعدم قيام

---

[1] آل عمران:١٠٢

[2] النساء:١

[3] الأحزاب:٧٠-٧١

الحجة عليه فهو معذور، ومن أبى وعاند بعد قيام الحجة وصف بالضلال ورفض الحق وحكم عليه بحسب ذلك.

ورفض الحق يكون بأسباب كثيرة نذكر منها :

أولا: اتباع الهوى.

وأصل الضلال : اتباع الظن والهوى، كما قال تعالى فيمن ذمهم : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾[1]

وهذا وصف للكفار فكل من له نصيب من هذا الوصف فله نصيب من متابعة الكفار بقدر ذلك النصيب .

وقال تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم:﴿ والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى ﴾ [2] فنزهه عن الضلال والغواية، اللذين هما : الجهل والظلم، فالضال هو الذي لا يقبل الحق، والغاوي الذي يتبع هواه .

وأخبر أنه لا ينطق عن هوى النفس، بل هو وحى أوحاه الله إليه. فوصفه بالعلم ونزهه عن الهوي .

ومتبع الهوى لا بد أن يضل، سواء عن علم أو عن جهل، فإنه كثيراً ما يترك العلم اتباعا لهواه، ولا بد أن يظلم إما بالقول أو بالفعل، لأن هواه قد أعماه .

قال تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون ﴾[4] فاتباع الهوى هو أصل الضلال والكفر، ومعلوم أن ذلك يتفاوت تفاوتاً عظيماً، فمنه ما يوصل إلى

---

[1] سورة النجم الآية ٢٣

[2] سورة النجم ١-٤

[3] سورة البقرة الآية ٨٧

[4] المائدة ٧٠

ما ذكر، ومنه ما هو أقل من ذلك، وكل من خالف الحق لا يخرج عن اتباعه للهوى أو الاعتماد على الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، كما قال تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾[1] فإن كان يعتقد أن قوله صحيح وله فيه حجة يتمسك بها فغايته اتباع الظن الذي لا يغني من الحق شيئا وتكون حجته شبهة فاسدة مركبة من ألفاظ مجملة ومعان متشابهة لم يميز بين حقها وباطلها، فإذا ميز الحق فيها عن الباطل زال الاشتباه .

ومما يجب أن يعلم أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن الكريم قصص السابقين إلا لنعتبر بها لما فينا من الحاجة إلى ذلك، ولما فيه من المصلحة، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا ما يقع لنا وما يكون فينا على ما وقع من السابقين وحصل لهم من جراء ذلك .

ولولا أن في نفوس كثير من الناس أو أكثرهم ما كان في نفوس المكذبين للرسل لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه بقول أو فعل أو سجية كامنة في النفس تنتظر الخروج، ولكن الواقع مثل ما قال الله تعالى : ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[4] وقوله : ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾[5] ، أي قولهم يماثل قول من سبقهم بالكفر ويشابهه .

والعاقل إذا تعرف على أحوال النفس كان حذرا من الشهوة الخفية .

قال شداد بن أوس : " يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية، قيل لأبي داود السجستاني : ما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة،[6]

---

[1] النجم الآية ٢٣

[2] البقرة– الآية ١١٨

[3] الذارسات: الآية ٥٢

[4] فصلت: الآية ٤٣

[5] التوبة: الآية ٣٠

[6] انظر مجموع الفتاوى ٢٢٥/١٠

فهي خفية تخفى على الناس وقد تخفى على صاحبها.

ومن علامات ذلك محبة من يعظمه بقبول قوله أو الاستماع له أكثر من غيره، وإن كان ذلك الغير أطوع لله وأتقى ، وهذا يوجد كثيرا حتى في المنتسبين للعلم !! فتجد بعضهم يحب من يعظمه ويطيعه دون أن يحب من هو نظيره في العلم أو أفضل منه، وإن كانا على منهج واحد، ثم قد يحصل ممن هذا وصفه ظلم وعدوان لمن خالفه في هواه، أو ربما لمن قام ببعض ما يجب عليه لله من نشر علم أو دعوة إلى الله تعالى ، فيقف في وجهه صادا عن الحق أو ملبسا الحق بالباطل كفعل علماء اليهود، كما قال تعالى عنهم: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾[1] ، ثم تجده يرمي من خالفه بالألقاب المكروهة المنفرة التي تخالف أمر الله ورسوله ابتغاء التفرقة وابتغاء الفتنة، وهو في ذلك يزعم أنه مصلح ودافع للفساد، كما قال الله عن فرعون : ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾[2] فهو يزعم أنه هو المصلح والمحافظ على الدين الحارس له من التغيير والتبديل، وأما موسى فإنه ممن يسعى لتغيير الدين والفساد في الأرض !! وهكذا تقلب الحقائق لدى أهل الأهواء ومبتغي العلو في الأرض فيصبح المفسد مصلحا والمصلح حقا لديهم مفسدا.

والواجب على كل من يتكلم في أمر من أمور الدين أن يكون مخلصا لله متجرداً للحق، وغالباً على نفسه بالمجاهدة عن اتباع الهوى وما تميل إليه من حظوظها الدنيوية، كحب الثناء والظهور وكثرة الأتباع، أو ما هو أسوأ من هذا كله، وهو الحصول على شيء من حطام الدنيا .

ومن هذه صفته فهو المعني بقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : " من طلب علما مما يبتغي به وجه الله تعالى لا يطلبه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة [3] " .

---

[1] آل عمران : الآية ٧١

[2] غافر: الآية ٢٦

[3] رواه أبو داود وابن ماجه وصححه الألباني.

ومقابله ما قاله أبو عثمان النيسابوري : " من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة " لأن الله يقول : ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾[1] .

فاتباع الهوى نوع من الشرك كما قال بعض السلف : " شر إله عبد في الأرض الهوى " ! فهو يضل الإنسان عن الحق وإن كان يعرف ذلك، فإذا صار الهوى هو القائد والدافع صار أصحابه شيعا يتعصب كل واحد لرأيه ويعادي من خالفه، ولو كان الحق أمامه واضحا لأن الحق ليس مطلوبه !! وبذلك يذلون وتذهب ريحهم، ويفشلون أمام كل عمل أرادوه، لأنهم صاروا متفرقين تتحكم فيهم الأهواء، ولذلك تجد هؤلاء كلما علم أحدهم أن من يخالفه قد تكلم في مسألة أو موضوع تجده يبادر إلى الرد عليه بدون تأمل في قوله وتلمس لوجه الصواب، بل يعمى عن هذا المقصد، ويبذل جهده في تضليل مخالفه، وتفنيد رأيه بكل ما يستطيع، ولو برأي تافه وتعسف بغيض، مع أن الذي يوجبه الإسلام هو محاورة المخالف والاطلاع على دلائله، ووزنها بميزان الكتاب والسنة ، ثم يكون ذلك هو القاضي في النزاع، كما قال تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾[2] فأوجب رد كل ما حصل فيه نزاع إلى الله والرسول لأن قوله : ﴿ في شيء ﴾ نكرة تعم كل ما أحدث نزاعاً وإن قل، وبين أن الرد إليهما هو مقتضى الإيمان، فإذا لم يرد النزاع إلى الله والرسول فمفهوم ذلك انتفاء الإيمان أو كماله عمن فعل ذلك ، والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته بعد وفاته، وذلك بإجماع العلماء .

وكل هذا .. المقصود منه حسم النزاع وإنهاؤه ليحصل الوئام والاتفاق، فإن هذا من أعظم مقاصد الشريعة الإسلامية ، وبذلك يتم القضاء على جزء كبير من العوائق المانعة من قبول الحق.

وأهل العلم يختلفون في بعض مسائل العلم وهم متحابون مجتمعون على الحق، معتصمون بحبل الله، كما كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يختلفون في

---

[1] انظر حلية الأولياء ٢٤٤/١٠ والعقيدة الطحاوية ٥٥٦/١ وإسناده في الحلية لا بأس به.

[2] النساء: الآية ٥٩

بعض أحكام الشرع ولا يدعوهم ذلك إلى أن يكونوا شيعا كل فريق يعادي الآخر، – كما يحصل اليوم لكثير ممن يزعم أنه من أهل العلم– مثل اختلافهم في إرث الجد مع الأخوة، وفي جواز بيع أمهات الأولاد، وفي المشركة، وفي الطلاق قبل النكاح، وفي مسائل في البيوع، وغير ذلك كثير كل واحد يخالف الآخر، ومع ذلك كانوا متوادين متناصحين، رابطة الأخوة الإسلامية قوية بينهم، لأن اختلافهم لم يكن في الأصول والمناهج، بل كان في المسائل.

قال الشاطبي –رحمه الله–:" كل مسألة حدثت في الإسلام فاختلف الناس فيها ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء، ولا فرقة علمنا أنها من مسائل الإسلام، وكل مسألة طرأت فأوجبت العداوة والتنابز والتنافر والقطيعة علمنا أنها ليست من أمر الدين في شيء، وأنها التي عنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتفسير الآية، وهي قوله تعالى : ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا﴾[1] فيجب على كل ذي دين وعقل أن يجتنبها، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾[2] ، فإذا اختلفوا وتقاطعوا كان ذلك لحدث أحدثوه من اتباع الهوى، فالإسلام يدعو إلى الألفة والتحاب والتراحم والتعاطف، فكل رأي أدى إلى خلاف ذلك فخارج عن الدين [3]"

ثانيا: التقليد الأعمى:

التقليد منه ما هو حق وواجب، ومنه ما هو مذموم مكروه، فأما التقليد الواجب فهو تقليد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بحسن اتباعه، والاقتداء به، وكذلك اتباع أهل الإجماع من علماء الأمة الأفاضل .

فهذا النوع من التقليد ليس مذموماً، أما التقليد المذموم الذي ذم الله أصحابه، وشبههم بالبهائم، فذلك التقليد الذي يجعل صاحبه بلا كيان ولا رؤية، فيقبل قول غيره من العامة بلا دليل ولا برهان، قال الله تعالى في أرباب هذا النوع: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما

---

[1] الأنعام : ١٥٩

[2] آل عمران :١٠٣

[3] الاعتصام ٢/٢٣٣ والموافقات ٤/١٨٧

أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [1] فهؤلاء المقلدون لا يعلمون شيئاً، ولا يفقهون سوى أنهم يسيرون على طريق آبائهم، دون أن يعرفوا هل هو طريق حق أو باطل، فمقياس الحق عندهم ما كان عليه الآباء، والباطل ما لم يكونوا عليه، فهم يتبعون الناعق دون علم أو رويَّة، فألغوا بذلك شخصياتهم، وجمّدوا عقولهم، ولم يستعملوها فيما أمر الله به من النظر والتدبر والتفكر، ورضوا بأن يصافّوا البهائم، العجماء، فيهينوا أنفسهم، ويذلوها.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ " [2] والقذة : ريشة السهم، وهي ما يشبه رصاصة البندقية (اليوم)، فكل واحدة تكون مساوية للأخرى، فالمعنى أنكم تكونون مثلهم بأفعالهم سواء بسواء .

والتقليد الأعمى من المنكرات التي تجب محاربتها وزجر الناس –خاصة طلاب العلم– عنها، حيث إن التقليد دفع البعض في العصور المتأخرة إلى التعصب الذميم البشع لآراء الأئمة وأقوالهم ، وتقديمها في أحيان كثيرة على النصوص الصريحة المخالفة لهذه الآراء والأقوال ،رغم أن الأئمة كانوا ينهون من أخذ عنهم من مغبة التقليد دون معرفة الدليل الشرعي الذي بنوا عليه قولهم ، وأن الأئمة أنفسهم كانوا يرجعون عن رأيهم إذا تبيَّن لهم الدليل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما:« يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ؛ أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتقولون: قال أبو بكر وعمر!»[3].

وقال الإمام الشافعي :«أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد ، وقال أيضا : ،إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط»[4].

---

[1] البقرة: ١٧٠-١٧١

[2] رواه البخاري والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري.

[3] أورده ابن تيمية في مواضع من فتاواه.

[4] انظر إعلام الموقعين:٢/٢٨٢، والاتباع: ١/٢٤، وإيقاظ الهمم:١/١١٤

وقال الإمام مالك : «ما منا إلا راد ومردود عليه ، إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وآله وسلم. وقال : ما كان من كلامي موافقاً للكتاب والسنة فخذوا به ، وما لم يوافق فاتركوه»[1] .

قال الشاطبي رحمه الله : «ولقد زل بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال أقوام خرجوا بسب ذلك عن جادة الصواب ، واتبعوا أهواءهم بغير علم ، فضلُّوا عن سواء السبيل »[2].

ثالثا: سيطرة العادات والتقاليد الموروثة:

كان أهل الجاهلية يعظمون الآباء والأجداد ، ويتغنون بمفاخر القبيلة ، فهم أكثر الناس عدداً ، وأقواهم شكيمة ، وأعلاهم نسباً ، فالكبر ديدنهم ، وعظمة الدنيا تملأ قلوبهم ، من كثرة الأموال والبنين إلى الخيل المسومة.. وقطعان الإبل والمواشي.

ومع الزمن كانت هذه التقاليد قد أصبحت ديناً ، فلا يجوز المساس بها ، ولا يصح الخروج عما تعارف عليه أبناء القبيلة الواحدة.

كاد الفرد أن يلغي عقله أمام مطالب العادات الموروثة ، وعندما أطلت تباشير الدين الجديد اصطدم الدين الحنيف بهذه التقاليد ، ولذلك حذر الإسلام من التعلق بالعادات الضالة وندد بفعل أصحابها ، وحذر من الوقوع في متاهاتها بعد نعمة الإسلام.. ومن هذه العادات المذمومة –مثلا– الفخر بالأحساب : قال –عليه الصلاة والسلام –:

«أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة .»[3]

دل الحديث على بطلان ما كان عليه أهل الجاهلية من الخصال الرديئة ، وورثتهم اليوم طائفة من هذه الأمة تجاوزوا فيها أسلافهم ، فتراهم يفتخرون

---

[1] الأسرار المرفوعة ٢٦٧/١، والمقاصد الحسنة: ٥١٣/١ معزوا إلى مالك.

[2] الاعتصام :٣٤٧/٢

[3] متفق عليه.

بمزايا آبائهم وهم عنهم بمراحل ، فهذا يقول: كان جدي الشيخ الفلاني ، وهذا يقول : جدي العالم الرباني..أو البطل أو المحارب،، إلى غير ذلك.

ويذكر ابن تيمية رحمه الله :« أن تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب هو حكم من أحكام الجاهلية الذين اتبعتهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل.. ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحداً بنسبه ولا يذم أحداً بنسبه ، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى ، ويذم بالكفر والفسوق والعصيان »، ثم استشهد بالحديث السابق [1].

لقد غلا القوم في تعظيم الأسلاف والأكابر حتى حجبهم هذا التعظيم عن قبول الدين الحق ، كما حال هذا التقليد دون إسلام أبي طالب ، رغم اعتقاده بصدق ابن أخيه صلى الله عليه وآله وسلم وما كان عليه من هدى.

عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال :«لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال: ياعم ؛ قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله. فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟، فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأعادا ، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله»[2].

والعصبية والتمسك بتراث الأسرة والعشيرة هو الذي جعل أبا جهل يقول :« تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا؟ ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه [3].

لقد رفض الإقرار بالحق ، وبالقرآن الذي استمع إليه خلسة مع نفر من أصحابه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جوار الكعبة، وتأثروا بما سمعوا.. لكنها التقاليد والعادات والحفاظ على موروثاتها.

---

[1] مجموع الفتاوى ٢٤٠/٢٥

[2] متفق عليه.

[3] السيرة النبوية لابن هشام: ٣١٦/١

إن المتتبع لأحداث التاريخ وتراجم الماضين ليقف حائراً مدهوشاً لما يرى من وقائع مذهلة أقدمت عليها طوائف من الناس، فأضفت قدسية وتعظيماً على الآباء والشيوخ والأجداد، وأطلقت عليهم من الصفات والنعوت ما يطلق عادة على الآلهة... ولتقاليد الأسلاف سلطان قوي يخلب ألباب البشر ، وسلطان الأجداد والشيوخ يجب أن يقف عند حد معين لا يتجاوزه ، وإلا كان وبالاً ومصيبة على البشرية ، لا يعرف مداها إلا الله .

يقول الإمام الشاطبي :«من أسباب الخلاف... التصميم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق ، وهو اتباع ما كان عليه الآباء والأشياخ وأشباه ذلك ، وهو التقليد المذموم ، فإن الله ذم ذلك في كتابه بقوله: ﴿ إِنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾[1]. وقوله: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [2]، فنبههم على وجه الدليل الواضح، فاستمسكوا بمجرد التقليد.. فقالوا : ﴿بَلْ وجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [3][4] .

وللاستفادة مما كان عليه الآباء ينبغي أن يخضع ذلك للكتاب والسنة ، للعلم والهدى ، لأنه إذا ثبت أن الحق هو المعتبر دون الرجال ، فالحق أيضاً لا يعرف دون وسائطه ، بل بهم يتوصل إليه ، وهم الأدلاء على طريقه.

إن الخطورة تكمن في تحكيم العادات في أمر الناس ولو خالفت الكتاب والسنة ، وما من عادة سيئة أو بدعة محدثة إلا وتُميت سُنة نيِّرة.. ولذلك حرر الإسلام العقول من الجمود على الماضي أو العادات الدارجة ذات الإلف في النفوس ، وسد كل الطرق المؤدية إلى تشويه صفاء التوحيد والعقيدة..

رابعا: العجب:

ومن الأمراض السريعة الفتّاكة: العُجْبُ، وما ينتج عنه من الغرور والكبر.

---

[1] الزخرف: ٢٢،٢٣

[2] الشعراء: ٧٣

[3] الشعراء: ٧٤

[4] الاعتصام: ٢/١٨٠

والعُجب هو: الإحساس بالتميّز، والافتخار بالنفس، والفرح بأحوالها، وبما يصدر عنها من أقوال وأفعال، محمودة أو مذمومة'وعرفه ابن المبارك بعبارة موجزة فقال: «أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك»[1].

وإذا تنقص المعجب أعمال الآخرين، أو ادعى ما ليس فيه واهماً امتلاكه، فهو الغرور؛ فإذا طال أشخاص الآخرين فهو الكبر.

ويدخل العجب في كل شيء يزهو به الإنسان، وأخطره العجب بالعمل. وهو المقصود هنا.

مداخل العُجب على أهل العلم كثيرة ولا يمنعه من قبول الحق بشكل مباشر، بل يصبغه بصبغة الرافض للحق على مراحل، فيدخل عليه من خلال نظره لما منحه الله إياه من بلاغة أو فصاحة وبيان أو سعة في العلم وقوة في الرأي، فإذا انضاف إلى ذلك حديث الناس عن أعماله، وتعظيمهم له، وإقبالهم عليه... لم يسلم حينئذٍ إلا القليل؛ ولذا أمر الله عز وجل نبيه بالإنذار والدعوة، وتعظيم ربه عز وجل وفعل الخير، واجتناب الشر، وهجر الأوثان، ثم قال له بعد ذلك: ﴿وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [2] ، قال الحسن البصري: «لا تمنن بعملك على ربك تستكثره»، فإنه مهما كُثرَ العمل ففضل الله أعظم، وحقه أكبر.

وقد نهى الله عن تزكية النفس، بمعنى اعتقاد خيريتها، والتمدّح بها فقال: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [3] ، كما نهى عن المن بالصدقة فقال: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [4] ، والمن يحصل نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العُجب. والإعجاب بالنفس شر، وأي شر، قال ابن المبارك: «لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العجب»[5].

---

[1] سير أعلام النبلاء: ٨/٤٠٧

[2] المدثر: ٦

[3] النجم: ٣٢

[4] البقرة: ٢٦٤

[5] سير أعلام النبلاء: ١/٤٠٧

ولــعــــــل المرء يدافع الرياء ويحس به، بيد أنه لا يشعر بما في داخله من العجــب المحبط، ومن أجـــــــــل ذلك كـــــــان مهلكاً بوصف النبي صلى الله عليــه وآله وسلم حين قال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجــاب المــرء بنفسه».[1]

وإذا كانت الذنوب مهلكة، فإنها قد تكون رحمة بصاحبها حين تخلصه من العجــب الذي هو الهلاك حقاً، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو لم تكونوا تــذنبون، خشيت عليكم أكثر من ذلك: العجب».[2]

وقال ابن مسعود رضـــي الله عـــنـــه : «الهلاك في شيئين: العجــب والقنــوط».. وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقــانط لا يطلــب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى.

ومما ورد في جزاء المعجبين قـــولـــه صلى الله عليه وآله وسلم: «بــيــنــمــا رجل يتبختر، يمشي في برديه، قد أعجبته نفسه، فخــسف الله بــه الأرض، فهــو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» وفي رواية: «قد أعجبته جمته وبرداه»[3]، فكيف بمــن أُعجِبَ بعلمه أو عمله؟!

ومن مظاهر العجب :

١- المنّ على الله، ومطالبته بما آتى الأولياء، وانتظار الكرامة وإجابة الدعوة.

٢- الإكثار من الثناء على النفس ومدحها، لحاجة ولغير حاجة، تصريحاً أو تلميحاً، وقد يكون على هيئة ذم للنفس أو للآخرين، يراد به مدح النفس.

٣- الحرص على تصيّد العيوب وإشاعتها، وذم الآخــرين أشخاصــاً أو هيئــات والفرح بذمهم وعيبهم.

٤- النفور من النصيحة، وكراهيتها، وبغض الناصحين.

٥- الاعتداد بالرأي، وازدراء رأي الغير.

---

[1] حسنه الألباني في صحيح الجامع:٣٠٤٥

[2] حسنه الألباني في الصحيحة: ٦٥٨

[3] رواه مسلم

٦- صعوبة المطاوعة، والحرص على التخلص من التبعات والمسئوليات، وتحقيق القناعات الشخصية.

٧- الترفع عن الحضور والمشاركة في بعض الأنشطة العلمية والدعوية، وخصوصاً العامة.

ولا شك أن آثار العجب على العبد كثيرة وخطيرة ومدمرة، وأخطر ما فيه صد صاحبه عن قبول الحق نظرا لظنه أن ما عنده يكفي فلا يحتاج إلى البحث ولا يحتاج إلى ما عند غيره.

أسأل الله أن يهدينا إلى الحق، ويحفظنا من موجبات الزلل، وكل خطب جلل.

وصل اللهم وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(فاس ده لورم/٣٠/١٢/١٤٢٩هـ الموافق:٢٨/١٢/٢٠٠٨م)

-مع شباب حركة الفلاح-

====

===

=